قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

س: ما هي العِبادة؟

ج: العبادة هي اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظَّاهرة والباطنة، والبراءةُ ممَّا يُنافي ذلك ويُضادُّه.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ:

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ سؤالًا آخر؛ فقال: (ما هي العِبادة؟).

ثمَّ أجاب عنه بقوله: (العبادة هي اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحبُّه الله ويرضاه) إلى آخره.

وأصل جوابه هو من كلام ابن تيميَّةَ الحفيد في رسالة «العبودِيَّة».

وهذا الحدُّ لـ(العِبادة) هو باعتبار المفعول المُتعَبَّد به؛ أي أفراد ما يُتعبَّد لله به؛ فإنَّه يُتعبَّد له بما (يُحبُّه ويرضاه من الأقوال والأعمال الظَّاهرة والباطنة)، مع (البراءة ممَّا يُنافي ذلك ويُضادُّه).

وتُعرَّف (العبادة) باعتبار التَّعبُّد - وهو فِعل الفاعل -: أنَّها تألُّه القلب لله بالحبِّ والخضوع.

والفَرْق بين هذين الحدَّين:

- **أنَّ الأوَّل:** يتعلَّق بالمفعول.
- **والثَّاني:** يتعلَّق بالفاعل.

وتعريف (العبادة) بـ(فعل الفاعل) أَولى مِن تعريفها بـ(المفعول الواقع نتيجةً

للفعل).

وقد يُسلَك الأوَّل للمبالغة في الإيضاح والبيان؛ وهو الذي جَرى عليه المصنِّف هنا.

وهذا الحَدُّ المذكور لـ (العبادة) هو باعتبار إرادة العبادة الشَّرعيَّة لله، لا باعتبار أصل العبادة.

فـ **(العبادة) في أصلها**: تألُّه القلب بالحبِّ والخضوع.

و**(التَّألُّه)**: الإجلال والتَّعظيم.

وهذا التَّألُّه:

✓ إذا كان لله: فهو عبادةٌ توحيديَّةٌ.

✓ وإذا كان لغيره: فهو عبادة شركيَّةٌ.

والمراد منهما في كلام المصنِّف: العبادة الشَّرعيَّة.

ولا تكون هذه العبادة التَّوحيديَّة شرعيَّةً؛ إلَّا بالإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والاتِّباع لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فتَلخَّص ممَّا تقدَّم:

◊ **أنَّ العبادة** هي تألُّه القلب بالحُبِّ والخضوع.

◊ **وأنَّها نوعان**:

- **أحدهما**: العبادة التَّوحيديَّة؛ وهي الَّتي يُؤَلَّه فيها الله وحده.
- **والآخر**: العِبادة الشِّركِيَّة؛ وهي الَّتي يُؤَلَّه فيها غير الله.

و**(العبادة التَّوحيدِيَّة) نوعان**:

- **أحدهما**: عبادةٌ توحيديَّةٌ شـرعيَّةٌ؛ وهي ما اجتمع فيها الإخلاص لله، والاتِّباع لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- **والآخر**: عبادةٌ غير شرعيَّةٍ؛ وهي ما اختلَّ فيها الإخلاص أو الاتِّباع.

وإذا أُطلِق ذِكر (العبادة) في كلام أهل العلم فإنَّهم يريدون (العبادة التَّوحيديَّة الشَّرعيَّة).

كقول المصنِّف هنا: (ما هي العبادة؟)، ثمَّ أجاب عنه بأنَّ (العبادة هي اسمٌ جامعٌ) إلى آخر ما ذَكر؛ فإنَّه يريد العبادة الَّتي تكون توحيديَّةً شرعيَّةً.

وسيأتي بعده مِن الأسئلة ما يُبيِّن هذا.

وما ذكرناه مِن جَعل مَدار (العبادة) على الحبِّ والخضوع، هو المختار مِن الجملتين الشَّائعتين في كلام أهل العلم.

فإنَّ أهل العِلم يُعبِّرون عمَّا تحصل به العِبادة بجملتين:

- **الأولى**: الحبُّ والخضوع.

- **والثَّانية**: الحبُّ والذُّل.

وكلاهما واقعتان في كلام جماعةٍ مِن الأكابر؛ منهم: ابن تيميَّةَ الحفيد، وصاحبه ابن القيِّم.

والمُقدَّم مِن الجملتين: الأُولى؛ فإنَّ (العبادة) تشتمل على حُبٍّ وخضوع.

وقُدِّم (الخضوع) على (الذُّلِّ) باستعماله في هذا الموضع لأمرين:

* **أحدهما**: أنَّ (الخضوع) هو الوارد في خطاب الشَّرع.

* **والآخر**: أنَّ في اسم (الذُّلِّ) نَقْصًا لا يُناسب مقام العِبادة.

وسَبق بيان هذا.

وهاتان الكلمتان ليستا بمعنًى واحدٍ؛ أشار إليه ابن سِيدَهْ، وأبو هلالٍ العسكريُّ في «الفروق اللُّغويَّة»، وبيَّن الثَّاني: أنَّ (الذُّلَّ) يكون مع الإكراه، بخلاف (الخضوع).

فمدار (العبادة) على الحُبِّ والخضوع.

وأشرتُ إلى ذلك بقولي:

وَ(عِبَادَةُ الرَّحْمَنِ) غَايَةُ حُبِّهِ ... وَخُضُوعُ قَاصِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ

وَ(الذُّلُّ) قَيْدٌ مَا أَتَى فِي وَحْيِنَا ... وَالْوَحْيُ قَطْعًا أَكْمَلُ التِّبْيَانِ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

س: متى يكون العمل عبادةً؟

ج: إذا كَمُل فيه شيئان؛ وهما كمال الحبِّ، مع كمال الذُّلِّ.

قال الله تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾[البقرة:١٦٥].

وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧﴾[المؤمنون].

وقد جمع الله تَعَالَى بين ذلك في قوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾[الأنبياء].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى سؤالًا آخر؛ فقال: (متى يكون العمل عبادةً؟).

ثمَّ أجاب عنه بقوله: (إذا كَمُل فيه شيئان؛ وهما كمال الحبِّ مع كمال الذُّلِّ)؛ أي على ما تقدَّم بيانه مِن كون العبادة دائرةً على تَحقُّق تألُّه القلب للمعبود بحبِّه والخضوع له.

فإذا توجَّه قلب العبد تعظيمًا وإجلالًا لمعبودٍ بحُبِّه وخضوعه؛ سُمِّي (عبادةً)، والمعبود الحَقُّ هو الله وحده؛ فلا يكون العمل عبادةً حتَّى يشتمل قلب العابد على محبَّة الله عَزَّوَجَلَّ والخضوع له.

وذكَر المصنِّف ثلاث آياتٍ تُشير إلى هذا الأصل - وهو كون العبادة دائرةً على

الحُبِّ والخضوع -:

فالآية الأولى: قوله تَعَالَىٰ: (﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥]) دليلٌ للحبِّ.

والآية الثَّانية: (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾[المؤمنون]) دليلٌ للخضوع؛ فإنَّ (الإشفاقَ) الَّذي يعتري قلب العبد ويخاف معه لا يكون إلَّا مع الخضوع.

ثمَّ ذكَر آيةً ثالثةً جامعةً بينهما؛ وهي قوله تَعَالَىٰ: (﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[الأنبياء])؛ فالآية المذكورة دالَّةٌ على اجتماع الحُبِّ والخضوع في قلوبهم.

- فــــ (الحبُّ) في قوله تَعَالَىٰ: (﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾[الأنبياء: ٩٠]).
- و(الخضوع) في قوله تَعَالَىٰ: (﴿وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء: ٩٠]).

فبعض الآية يتعلَّق بـ (الحبِّ)، وبعضها يتعلَّق بـ (الخضوع).

وسَبق بيان أنَّ (الذُّلّ) تعبيرٌ جارٍ في كلام بعض أهل العِلم للدِّلالة على (الخضوع)، والأَولى: استعمال (الخضوع).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

س: ما علامة محبَّة العبد ربَّه عَزَّوَجَلَّ؟

ج: علامة ذلك: أن يحبَّ ما يحبُّه الله تَعَالَىٰ، ويُبغِضَ ما يُسخطُه؛ فيمتثلَ أَوامرَه، ويَجْتنبَ مَناهيَه، ويُوالي أولياءَه، ويُعادي أعداءَه؛ ولذا كان أَوثقُ عُرى الإيمان: الحبُّ في الله والبغض فيه.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

لمَّا ذكرَ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ أنَّ الحبَّ ممَّا ترجع إليه العبادة، أورد سؤالًا يتعلَّق ببيان علامة محبَّة العبد رَبَّه؛ فقال: (ما علامة محبَّة العبد ربَّه؟).

ثمَّ أجاب عنه بقوله: (علامة ذلك: أن يُحبَّ ما يحبُّه الله تَعَالَىٰ) إلى آخره؛ **المُبيِّنِ أنَّ علامة ذلك شيئان:**

- **أحدهما**: محبَّة العبد محبوباتِ الله.
- **والآخر**: بُغضُه مَساخطَه - أي ما يُوجِب سَخَطه.

وهما أمران متقابِلان؛ فالمحبَّة يكون معها المَيْل، والبُغض تكون معه النُّفرة.

ثمَّ ذكر ما ينشأ عن هذين الأمرين؛ وهو أربعة أشياءَ:

الأوَّل: في قوله: (فيمتثل أَوامرَه) أي يتَّبعها.

والثَّاني: في قوله: (ويَجْتنب مَناهيَه) أي يُباعدها تاركًا لها.

والثَّالث: في قوله: (ويُوالي أولياءَه) أي يُحبُّهم وينصرهم.

والرَّابع: في قوله: (ويُعادي أعداءَه) أي يُبغضهم ويحاربُهم.

ثمَّ ذَكر أنَّ هذه الأمور تنتظم في (الحبِّ في الله والبُغض فيه)؛ وبه صار ذلك (أَوثق عُرى الإيمان)، ورُوِيت هذه الجملة في أحاديثَ حسنةٍ، وتُوجَد في كلام جماعةٍ مِن السَّلف.

و(**العُرى**): جَمع (عُروةٍ)؛ وهي ما يُتعلَّق به.

و(**الأَوْثق**): الأقوى والأحكم.

فالأقوى فيما يثبت به الإيمان ويُحْكَم هو (الحبُّ في الله والبُغض فيه)، النَّاشئُ مِن محبَّة محبوباتِ الله وبُغض مَساخطه.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

س: بماذا عَرف العباد ما يحبُّه الله ويرضاه؟

ج: عرفوه بإرسال الله تَعَالَى الرُّسلَ، وإنزالِه الكتبَ؛ آمرًا بما يحبُّه الله ويرضاه، ناهيًا عمَّا يكرهه ويأباه.

وبذلك قامت عليهم حجَّتُه الدَّامغة، وظهرت حكمتُه البالغة.

قال الله تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النِّساء:١٦٥].

وقال تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١﴾ [آل عمران].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ:

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ سؤالًا آخر مُتعلِّقًا بما قبله؛ فقال: (بماذا عَرف العِباد ما يحبُّه الله ويرضاه؟) أي بما مَيَّزوا ما يُحِبُّه الله ويرضاه؟ وهل استقلُّوا بمعرفته أم لا؟

ثمَّ أجاب عنه بقوله: (عرفوه بإرسال الله تَعَالَى الرُّسلَ، وإنزالِه الكتبَ)؛ أي أنَّ هذه المعرفة الَّتي حصلت لهم بتمييز مَحابِّ الله ومراضيه وقعت بأنَّ الله أرسل إليهم رُسلًا وأنزل معهم كُتبًا له.

فالعقول لا تستقِلُّ بمعرفة مراد الله عَزَّوَجَلَّ، وهي مُفتقِرةٌ إلى دليلٍ يُرشِد إليه؛ فبَعث الله عَزَّوَجَلَّ الرُّسل، وأنزل الكُتبَ؛ للإرشاد إلى مُراده؛ فأمروا العِباد (بما يحبُّه الله

ويرضاه)، ونَهوهم (عمَّا يكرهه ويأباه).

قال المصــنِّف: (وبذلك قامت عليهم حجَّتُه الدَّامغة، وظهرت حكمتُه البالغة)؛ و(**الدَّامغة**) هي المُبطِلة لدَعواهم، و(**البالغة**) هي الكاملة التَّامَّة؛ ومنه قوله تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[الأنعام:١٤٩].

وذَكر المصنِّف دليلين في بيان هذا:

الأوَّل: قـولـه تَعَالَىٰ: (﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النِّساء:١٦٥])، وهو مطابِقٌ لِما ذَكره المصنِّف في أنَّ الله بَعث الرُّسل لهداية النَّاس إلى مُراده؛ فلا يكون - مع وجودهم - للخَلق حجَّةٌ على ربِّهم.

والثَّاني: قوله تَعَالَىٰ: (﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١]) الآية؛ أي فاتَّبعوا الرَّسول الَّذي أُرسِل إليكم؛ فإنَّه جاء لإرشادكم لِما يحبُّه الله ويرضاه.